مشكلة القدم والحدوث

د. خميس سبع الدليمي
الجامعة المستنصرية-كلية التربية الأساسية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

تعد هذه المشكلة من أهم المشكلات التي دارت حولها البحوث والدراسات عند جميع الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين.... واعتقد كثير من المتكلمين ان حل هذه المشكلة يؤدي إلى معرفة الباري تعالى....

هنا محاولة لدراسة القدم والحدوث وسأتبع هذا البحث بدراسة للواجب والممكن والمستحيل وأكون بهذا قد أجريت دراسة لدليلي الحدوث والوجوب والله الموفق.

معنى القدم والحدوث:

القدم: يقال على وجوه، فيقال قدم بالقياس، وهو شيء زمانه في الماضي أكثر من زمان شيء آخر وهو قديم بالقياس إليه.

أما القديم عند الفلاسفة فهو يقال على وجهين: بحسب الزمان وبحسب الذات. أما الذي بحسب الزمان فهو الذي وجد في زمان ماض غير متناه، واما القديم بحسب الذات فهو الشيء الذي ليس لوجود ذاته مبدأ به وجب. فالقديم بحسب الذات والزمان هو الذي ليس له مبدأ زماني بحسب الذات، وهو الذي ليس له مبدأ يتعلق به وهو الله تعالى[١].

وذهب بعض الفلاسفة المسلمين، إلى أن الفعل الأول والفلكيات، اجرامها وعقولها ونفوسها، بذواتها وصفاتها، كلها قديمة، إلا الحركات الجزئية للأجرام والأوضاع الشخصية التابعة لتلك الحركات. واما الحركة فهي قديمة، ولا أن تكون الحركة من ذاتها وإنما يجب ان يكون.

هناك محرك لايتحرك جميع الموجودات في الموجود والعنصريات أجسامها بمواردها ومطلق صورها الجسمية والنوعية ومطلق صفاتها كذلك قديمة[٢].

---

[١] ينظر: ابن سينا، تسع رسائل، الحدود (الطبيعيات)، ص١٠٢.

[٢] حول هذا الموضوع ينظر: ابن سينا، الشفاء السماع الطبيعي (الفن الأول)، مخطوطة مكتبة المتحف العراقي، تم (٢٥١) كذلك المعتبر في الحكمة الطبيعيات، ج٢، ص١٥٠ ومابعدها.

القديم: هو المتقدم في الوجود على شريطة المبالغة، وليس بتخصيص بالذي لا أول لوجوده بل يطلق على المتقدم من الحوادث.

القول بالحدوث:

الأحداث: يقال على وجهين **إحداهما:** هو الشيء الذي يكون مامضى من زمان وجوده أقل مما مضى من زمان وجود شيء آخر.

وثانيهما: الحدوث المطلق ويكون على وجهين أيضاً: أحدهما: زمان معناه حصول الشيء بعد أن لم يكن له وجود في زمان سابق، وهذا قول المتكلمين، ويعبرون عنه بقولهم (الجسم لايخلو من الحوادث وكل ما لايخلو من الحوادث فهو حادث، والله تعالى أوجد الجسام وجميع الأشياء في الوجود بآن زماني)[١].

أما الاحداث غير الزماني، فهو إفادة الشيء وجوداً وليس له في ذاته ذلك الوجود لايحسب زمان دون زمان بل في زمان.

يقول ابن حزم: والله تعالى خالق لكل مخلوق في زمان وقال تعالى، (ثم أنشأناه خلقاً آخر))[٢] وقال تعالى ((خلقنا من بعد خلق))[٣].

واضح أن في كل حين يحيل الله تعالى أحوال مخلوقاته فهو خلق جديد، والله تعالى يخلق في كل حين جميع العالم خلقاً مستأنفاً دون أن يفنيه. والخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين في مشكلة القدم والحدوث واضح لأسباب عديدة نستعرضها كما هو آت:

المتكلمون قالوا: ان الله تعالى هو القديم ولا قديم سواه وان ماعداه مسبوق بالقدم سبقاً زمانياً والفلاسفة ذهبوا إلى ان ماعدا الباري تعالى غير مسبوق بالقدم إلا سبقاً بالذات[٤].

والمتكلمون ساقوا حججاً عديدة على حدوث العالم ومن هذه مايستند إلى فكرة الأجسام وإنها في الوجود ليست قديمة، وإنها بالضرورة تكون محدثة لأنه لا واسطة بين القدم والحدوث.

---

[١] ينظر: ابن سينا، تسع رسائل، ص١٠٢، الفصل في الملل والنحل، لابن حزم، تحقيق الدكتور عبد الرحمن خلف، ج٥، ص٥٥.

[٢] المؤمنون/١٤.

[٣] الزمر/٦.

[٤] ينظر: ابن سينا، الإشارات والتنبيهات-الالهيات-، تحقيق: سليمان دنيا، ج٣، ص٥٣٤-٥٣٥.

والطريق الثاني: أن نبين انها لم تسبق المعاني المحدثة، فيعلم ان حمكها يكون بالحدوث وهذا يعني ان الأجسام لو كانت قديمة لوجب ان تكون منذ الأزل في جهة من جهات العالم لأن ماهي عليه من الحجم يوجب ذلك، لايخلو كونها في تلك الجهة أما ان تكون للذات، أو المعنى قديم، أو المعنى محدث، أو بالفعل. وإذا بين فساد جميع ذلك، علم انها لم تكن قديمة.

أما عن الاحتمال الأول فلا يجوز أن تكون في الأزل في جهة بالفاعل لأن القديم من شأن الفاعل ان يتقدم عليه فعله، ولو يقدم فاعلها عليها لكانت محدثة لأن القديم لايمكن ان يتقدم عليه غيره، والمعنى المحدث لايوجب صفة في الأزل. وكونها في الجهة للذات توجب استحالة انتقالها لأن صفات النفس لايجوز تغيرها أو زوالها والمعلوم ضرورة صحة انتقالها. فيبطل ان يكون كذلك للنفس أو الذات ولايجوز ان تكون كذلك في باقي الوجوه. وفي بطلان جميعها كونها قديمة يؤدي بنا نقيضها أي حدوثها[١].

وأكد العلاق: ان لا حركة إلا وقبلها حركة ولا حادث إلا وقبله حادث لا عن أول ولا حالة قبله وان جميع الحوادث لها ابتداء لم يكن قبلها حادث كذلك لها آخر لايكون بعدها حادث[٢].

والفيلسوف العربي (الكندي) أكد في "رسالته في وحدانية الله تناهي جرم العالم". "وليس ممكناً ان يكون بلا حدود مدة فانية الجرم ليست لا نهاية لها، وانية الجرم متناهية، فيمتنع ان يكون جرمه لم يزل، فالجرم إذا محدث اضطراراً والمحدث محدث المحدث والمحدث والمحدث من المضاف، فالكل محدث اضطراراً عن ليس "أي من العدم المحض"[٣].

ويقول الباقلاني[٤] الموجودات كلها على ضربين قديم لم يزل ومحدث لوجوده اول.

---

[١] المصدر السابق، ص١٤٤.

[٢] الفصل في الملل والنحل، ج١، ص١٩-٢٠. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص٩٨. الفرق بين الفرق، ص١٢٤.

[٣] رسائل الكندي الفلسفة، تحقيق: عبد الهادي أبو ريده، ص٢٠٦-٢٠٧.

[٤] أبو بكر محمد الطيب بن الباقلاني (ت٤٠٣) من كبار متكلمي الأشاعر وهو أقام مذهب الأشاعرة الاعتقادي بناءً منظماً منهجاً استدلالياً، بل انه يعد المؤسس الحقيقي لعلم كلام اهل السنة، ولد في البصرة، ولم يحدد احد الباحثين تاريخ مولده، وحكى الخطيب البغدادي ان أبا بكر توفي يوم السبت (٤٠٣هـ) للخطيب البغدادي، ج٥، ص٣٧٩.

فالقدم هو المتقدم في الوجود على غيره، وقد يكون لم يزل، وقد يكون مستفتح الوجود، دليل ذلك قولهم: بناء قديم، يعنون الموجود قبل الحادث بعده، وقد يكون المتقدم بوجوده على ماحدث بعده متقدماً إلى غاية، وهو المحدث المؤقت. وقد يكون متقدماً إلى غير نهاية، وهو المتقدم (جل ذكره) وصفات ذاته، لأنه لو كان متقدماً إلى غاية يؤقت بها فيقال انه قبل العالم بعام أو مئة الف عام لافاد توقيت وجوده انه معدوم قبل ذلك الوقت، والله تعالى عن ذلك.

والمحدث هو الموجود من عدم، يدل على ذلك قولهم: حدث لفلان حادث من مرض أو صداع إذ أوجد به بعد أن لم يكن، حدث به حدث الموت وأحدث فلان في هذه العرصة بناء، أي فعل ما لم يكن قبل والحدثات كلها تنقسم ثلاثة بحسب رأي معظم المتكلمين فجسم مؤلف[١] وجوهر منفرد وعرض موجود بالأجسام والجوهر.

وقول الفلاسفة في قدم الصفات والذات راجع إلى ان الأجسام الفلكية عندهم قديمة بذواتها، وقديمة بصفاتها العينية، إلا حركتها. فإن كل واحدة من حركتها مسبوقة بحركة أخرى لا إلى بداية[٢].

وجميع الأجسام العنصرية، فإن مادتها قديمة بصورتها الجسمية، لأن المادة لاتخلو عن الصورة الجسمية[٣] التي هي طبيعة واحدة نوعية لاتختلف إلا بأمور خارجة عن

---

[١] اعتقد ابن سينا ان الجسم المركب من المادة والصورة واعتبر المادة هي المحل الذي يتقبل الصورة وتظهر بها إلى الوجود. والصورة هي مايحل في هذا المحل والجسم يتركب منها ويظهر بالفعل ولكن لو تساءلنا هل ان الجسم في الصورة مبدأ ثالثاً وهو العدم ولنقرب المعنى بالمثال الآتي: ان مادة النحاس هي المحل الذي يتقبل لا صورة أخرى غير صورة التمثال، أي ان النحاس قبل ان يظهر إلى الوجود بهذا الشكل والتمثال كانت له استعدادات وامكانيات موجودة عدمت هذه كلها عندما حصلت صورة التمثال. وهذا الجسم أو المادة هو متغير وليس ثابت. وان للجسم من حيث متغير ان يكون له امر قابل لما تغير عنه ولما تغير إليه. زيادة إلى الصورة حاصلة، وعدم لها كان مع الصورة الزائلة.

[٢] يقول ارسطو "بما ان الحركة هي بالضرورة أبدية وبما لايجوز أبداً ان تنقطع يلزم ضرورياً أيضاً ان يكون هناك علة ما تحرك أوليا الأشياء سواء كانت واحدة أو متعددة. وهذه العلة هي المحرك الأول اللا متحرك وهو الله تعالى في فلسفة ارسطو.

علم الطبيعة بارتلي لارسطو، ك٧٣٨، ص٣٥٤-٣٥٥.

[٣] ان كل جسم يتألف من حقيقتين هما الصورة والمادة، وان كلا من هاتين الحقيقتين إذا أخذت على حدة هي غير الجسم وان كان الجسم موجوداً بها ويستمد حقيقته منها. وان كل مادة ليست ذات صورة

حقيقتها، فتكون مستمرة الوجود أزلاً وأبداً. وقد ذهب إلى هذا المذهب ارسطو وابن سينا تبعه وأزاد عليه.

وفي فلسفة الشيخ الرئيس (ابن سينا) ان للجسم الطبيعي صورتين. صورة جسمية أو جرمانية. وصورة نوعية، ولهذا كان الجسم مادة، فإنه يحتاج في وجوده إلى شيء آخر خلاف الصورة النوعية، وهي الصورة الجسمية التي يرى فيلسوفنا (ابن سينا) انها علة الكثرة في الموجودات. وابن رشد أكد أن أرسطو صرح فقط بالصورة النوعية ولكن الشيخ الرئيس أكد صورتين هما النوعية والجسمية[1].

ويتضح لنا من خلال مواقف الفلاسفة، ان الأمر يختلف اختلافاً كلياً في معالجتها لمشكلة القدم والحدوث، خصوصاً عندما نتعمق في بحثنا عن مبادئ الأجسام الطبيعية لأن هذا الموضوع لانجده في فلسفة المتكلمين.

بالذات ولكنها قابلة للصورة فقط لأن نفي التسلسل الذي لاينتهي، فإن وضعها المادة ذات صورة لزم ان تكون منقسمة إلى مادة وصورة، ويمر هذا الأمر إلى غير نهاية وهذا محال ببديهة العقل.

[1] مابعد الطبيعة، لابن رشد، ٣-١٥٤٧، وحول هذا المذهب ينظر تفاصيل: كتاب الاربعين في أصول الدين للرازي ولايجي: المواقف للايجي، ج٧، ص٢٢٠.

المصادر والمراجع

١- الاربعين في اصول الدين للشيخ فخر الدين الرازي، طبعة حيدر اباد الدكن، ١٣٣٥هـ.

٢- الإشارات والتنبيهات، الالهيات لابن سينا، تحقيق: سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٥٧م.

٣- الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للشيخ الطوسي، النجف، ١٩٧٩م.

٤- الانتصار والرد على البن الراوندي لابي الحسن الخياط، نشر ليبرج، القاهرة، ١٩٢٥م.

٥- السماع الطبيعي "الشفاء" لابن سينا الفن الأول، مكتبة النجف، بغداد، رقم ٢٥٠.

٦- الفرق بين الفرق والبيان الفرقة الناجية، لعبد القاهر البغدادي، نشر محمد بدر، القاهرة، ١٩١٠م.

٧- الفصل في الملل والنحل لأبي حزم الظاهري، تحقيق: عبد الرحمن خلف، ج٥، ط٢، ١٣٤٧هـ.

٨- المعتبر في الحكمة لأبي البركات هبة الله البغدادي، ج٢-٣، طبعة حيدر اباد الدكن، ١٣٥٨هـ.

٩- المواقف لعضد الدين الايجي، ج٧، استنبول، ١٢٨٦هـ.

١٠- تاريخ بغداد لابي بكر احمد بن بكر الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١- رسائل الكندي الفلسفة لأبي اسحاق الكندي، نشرة أبو ريدة مع مقدمة تحليلية، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٢- رسائل في الحدود- الطبيعيات، لابن سينا، مطبعة الهندية في مصر، ١٣٢٦هـ.